الأب جميل للقرن السادس عشر

رسالة البطريرك اغناطيوس نعمة الله السرياني

(١٥٧٩م)

عرّبها عن الاصل السرياني ، وافتتحها بترجمة حياة البطريرك المذكور
الخوري يوحنا عزّو ، كاتم اسرار البطريركية السريانية الانطاكية

٢

الرسالة

..... تهوون اليَّ بأيديكم ، وترفعوني ، أنا المتساقط الى أسافل الأرض ، وتدنون بي كالابن الشاطر من المائدة الروحية ، وتزّينوني بالحلّة الفاخرة ، وتصنعون من متى جابي الاعشار رسولاً وانجيليًّا ، وتبرزون من زكّا القصير القامة صاحب المكس مبشّرًا ووليًّا ، وتحملونني على الكتف كالخروف الضائع ، وتتخلّون عمّا وجب عليّ كالذي كان مديناً ربوات الوزنات ، وتدعون ابناء البيعة الى وجدان الدرهم المفقود ، وتعاملونني نظير الملك السموي لمّا وجد آدم يتطاول الى مساواته وخطف عرش الوهيته اتّشح برداء التواضع وغفر جريرته ، وتقولون على مثال داود المزمّر الالهي لمّا قتل ابنه ابيشالوم " يا ابني ابيشالوم . يا ابني ابيشالوم . يا ابني . يا ليتني متّ بدلك يا ابيشالوم ابني . يا ابني " (٢ سموئيل ١٨ : ٣٣) وتجازوني بالخيرات شبه يوسف الذي احتمل من اخوته ضروب البليّات ، وتبذلون نفوسكم للموت على شاكلة موسى النبيّ الذي فدى اذيّات كثيرة من الشعب الاسرائيلي ، وتتبتلون نظير بولس العظيم راغبين ان تضحوا انتم انفسكم محرومين عوض اخوتكم . وانسبائكم في الجسد ، وتتزيّون الطلبة عن راجيكم اقتداء باسطفانوس ، وتدمعون اسوة بربّكم

عن الذين صلبوه . تصنعون هذا كله عالمين بالضعف البشري ، لان البشر لا يتمكنون من اللبوث على وجه البسيطة في هذا العالم دون خطيئة . فقد اخذ حزقياء بالكبرياء ، واستسلم بطرس لجحود ربه . فالاثم اذاً لا يعرض للاشرار فقط بل للاخيار ايضاً ، لان الله وحده لا يأثم البتة ولا يؤخذ بالاهواء . وقد قال مار غريغوريوس : « ان الملائكة لا يستطيعون الخطأ ، والبشر يسقطون فيقومون ، والابالسة وحدهم اذا ما سقطوا لا يتأتى لهم القيام » . والبار ، حسبما يعلم الحكيم ، يسقط في اليوم سبع مرات ويقوم . وقد جزم ربنا ان يكون الغفران سبعين مرة سبع مرات . فانت اذاً ، يا ابانا ، اغفر كوصية ربنا ، ليغفر لك ولا يحبس في صدرك الطاهر ابداً في محل ما ذكر خطايانا وجرائرنا . بل اذكرْ ان مرارًا كثيرة تتولد الشرور من الخيور والخيور من الشرور . واذا ما اراد الله ان ينوّه بانسان اسلمه اولاً ليمتحن ويمحص في التجارب نظير ما فعل مع يوسف لمّا اراد ان يجعله ملكاً لمصر . وقد صعد بداتيال من الجبّ ، واخرج يونان من جوف الحوت ، والفتيان من الاتون . هذا ان بطرس لو لم يعدم صيد الليل لما استحقّ الحظوة بصيد النهار . ولو لم يصب بولس بالعمى علانية لما ابصر بالروح ورجع عن غيّه . ولو لم يظلم اسطفانوس ويعدّ مجدّفاً لما عاين السموات مفتوحة . ولو لم يمحص مار ميخائيل الكبير كالذهب في الكير لما وضع كاكليل في رأس البيعة . ولو لم تنل التجارب تترى مني انا السقيط النفس وتلين صلابة نفسي كفعل الحديد بالنار لما تعلّمت ان اقول : « خيرٌ لي لانك اذللتني لاتعلّم وصاياك » (مز ١١٨ : ٧١) . وبعد ان اتخلّى عن الكراسي لمن تطلبون ، وادع ان يكون للبعض العناء والكرامة وللبعض الحرب والنصرة ، ازجي حياتي كلها عبداً وتلميذاً لكم الى ان اغمر التقوّلات المشبعة اجاجاً بيبتات مشربة ماء الحقّ الصراح ، اصنع هذا مرتاعاً لذكر عوزة الذي تلقّى قضاء الموت بغتة لانه تجرأ على لمس تابوت الربّ السرّي كما جاء في سفر صموئيل الثاني (٦ : ٦ و ٧) : « ولما انتهوا الى بيدر ناخون مدّ عوزة يده الى تابوت الله وامسكه لان الثيران انشمست فاحتمى غضب الرب على عوزة وضربه الله هناك لتجاسره فمات هناك عند تابوت الله » . واولئك الذين كانوا

يخدمون في قبة العهد التهمتهم نار مجامرهم لانهم تشهّوا الشهوات البدنيّة خلافاً للناموس كما ورد في سفر العدد (١٦ : ٣٥) : « ثم خرجت نار من قدّام الرب واكلت المائتين والخمسين رجلاً الذين كانوا قد قرّبوا البخنة » . وما ورد في سفر اللاويّين عن ابني هارون (١٠ : ١و٢) : « واخذ ناداب وابيهو ابنا هارون كل رجل منهما مجمرة وجعلا فيها ناراً ووضعا عليها بخوراً وقرّبا امام الرب ناراً غريبة لم يأمرهما بها فخرجت من عند الرب نار واحرقتهما فماتا قدام الرب » . واني لاذكر بأس تلك اللفظة المفعمة رهبةً وقد فاه بها امتوح العظيم كما ذكر سفر القضاة (١٣ : ٢٢) قائلاً لامرأته : « نموت موتاً لاننا قد عاينّا الله » . كذلك لشعياء ، كبير الانبياء ، لمّا استنار من الروح القدس عقل ان منعمة النبوّة اسمى من قوّته الخاصّة فقال : « الويل لي اني هلكت لاني رجل نجس الشفتين ، وانا ساكن بين قوم نجس الشفتين ، وقد رأت عيناي الملك رب الجنود » (اشعياء ٦ : ٥) . وارميا كان يتوجّس فرقاً جدًّا لئلا تحجب خساسة القامة وصغرها سموّ النبوّة فقال : « آه ايها الرب الاله اني لست اعرف ان اتكلم لاني فتى » (ارميا ١ : ٦) . بل ان موسى من قبل هؤلاء لمّا ارسل الى مصر كان يتلوّم في الامر منقبضاً حياء من رفعة الرسالة وتعذّر عنها باللثغة والجهل ، قال : « هوذا بنو اسرائيل لم يسمعوا مني فكيف يسمع مني فرعون وانا الثغ اللسان » (خروج ٦ : ١٢) . فان كان هؤلاء اذًا الذين كانوا اطهاراً بالقول والفعل يرتاعون لعظمة الخدمة فكم بالاولى نحن الذين منهم على طرفي نقيض ، ومأسورون باميال النفس والجسد المنحرفة ؟ فخيرٌ لنا ان نتفهّم نفسنا لئلا تبتلعنا الارض نظير قورح وداثان وابيرام ومن لفّ لفّهم ، لانهم قاموا في غير محلهم ، كما جاء في سفر العدد (١٦ : ٣٢) « وفتحت الارض فاها وابتلعتهم هم وبيوتهم وكل من كان لقورح مع جميع الاموال » . وليس فقط هؤلاء الاولون يستعفون من العظمة لكن ربنا نفسه ، حسبما يعلّم الرسول عنه ، انه لم يمجد نفسه ليكون عظيم احبار حتى قال له الآب : « انت حبر الى الابد شبه ملكصادق » . وشمعون هامة التلامذة ايضاً لم يخطف زعامة الرهط الرسولي حتى اوتمن على المفاليد وسمع تلك العبارة القائلة : « ارعَ خرافي . »

ولم يكن في وسع عبدك الذليل العاجز ايضاً الاتيان على الرعاية حتى قبل المفاتيح من يديك ، كما قبل شمعون من المسيح . فان قلتم كيف نستطيع ، والحالة هذه ، ان نخلف كرسي رسالتكم ، بل نجيب بدالة : حاشانا ان نسلب الدرجة السامية كلص بواسطة الاجنبيين ، وتدنس بهاء البيعة ، او نقبل عوض يهوذا اسرائيل ويهوذا ، ونقسم القميص المنسوج باليد من فوق مع الجنود . بيد اننا لما هربنا من ابن اخيك لانه كان يتهددنا باخذ الاسكيم الذي كنا منحناه بواسطته ، والامضاء الذي وقعناه باسرهم ، الجأنا الى الليلاذ بالهزيمة من امامه . ومن ثم وصلنا الى اورشليم ، وحللنا في دير الارمن ، فأكرم روساؤهم وفادتنا . ثم بعثة كتاباتهم الى الجاثليق . طُردنا من هناك ، وأُخرجنا من الدير الذي كنا معتزلين فيه ، وبقنا ننظم مراثي لذلنا . ولما آب جاثليق الروم من رومة هرع اليه مطراتكم وتوسل بكل الوسائل لديه ، والحف في الطلب منه حتى اعمى عينيه ، فوعد باجلائنا . ولاجل ذلك استدعانا اليه ، ولما جيء بنا الى الوسط امامه وعاين ان ذلك لا يليق بمقامنا ، انتبه حينئذٍ اثناسيوس ، مطران الارمن ، والم بالضرر الذي انتابنا باعدامنا إقطاعاتنا وارزاقنا . فتشاور الرعاة بينهم لا من جراء طلبتنا والتماسنا ، ولا بارادة الولاة المرغمة ، بل بارادة الله سبحانه وعنايته الخاصة ، فاقمنا عنده بدعة وحب . ولما حضر زمن جباية الاتاوة خفف عنا وقر الدنانير بناء على ما سبق لنا من استرضائه ، ولانه وجدنا ابرياء تجاه من اغتابنا . على ان ذلك الشخص ، اي الجاثليق ، كان يضمر الايقاع بالاسقف لما كان قد خامر قلبه من الحقيدة عليه وتمكن فيه من الحزازات ، فاخذ يتطلب علة يأتي بها عليه لينقع اوامه ويتشفى منه . فلما وصلت رسالتكم المقدسة المسطورة باللغة العربية تناولها البطريرك فوجدها مستهلة بشعار مار ميخائيل ، بطريرك انطاكية سورية ، فعدت له هذه العبارة مسكة سوفسطائية وقال : ليس في وسع بطريرك انطاكية ان يسوس رعية بطريرك اورشليم . ولاجل ذلك امر الا يُنادَى ببطريركنا في القداس . اما الاسقف القديس فلانه لم يصبر على ابطال اسكيم وعده بثلثمائة دينار يؤديها له في الصيام المقدس ، وفي مرجونا اصلاح ذات البين بهبة ما يسيرة .

فاذا ان كنت ترغب في المجيء الى هذه الناحية وتصعد الى مدينة القدس اورشليم ، تصادف منافع جمة بمجيئك . اولا تربح عبدك وتطيب نفسك . ثانياً تولي السلام بيعة المسيح فيتجدد الدير ولا يخرب على يدكم ويُكتشف الذين تجاسروا وابطلوا اسمكم وأوجبوا الخراج واورثوا الدير المضار . ومن يثبت عليه هذا الذنب امامكم فلا يُنبذ ويُحرَم من البيعة كلها فقط ، بل يتحتم عليه ايضاً عدلا ان يفي الذهب المتعين علينا ولا يتابكم او يثاب الدير او المطران خسارة باي نوع كان . وبمجيئكم ترادون رفعة وتتوافر لكم العظمة والكرامة . وانا اكون امامكم عبداً وتلميذاً ومليباً لرغائبكم كلها ليس عند شعبنا وحسب ، بل عند بطريرك الفرنجة . وقبل ان تدخل حدوده يسبق اليك كتابه وعهده ، فتحوز الكرامة ، وتدخل اورشليم باحتفاء ووقار حسب عادة البطريرك . فتقرّ ، ولا تخف ، ولا يختلجنّ في صدركم خواطر ضيفة . بل تشجعنّ ، وانا قدامك بنيّة مستقيمة ، ويجبّ لا يشوبه رياء ، يشهد عليّ الله الذي اخدمه بروحي اني متأهب لان اموت في سبيل رفعتكم وتحقيق امنيتكم الالهية ، لكيما انسى بطعم المرائر طعم المخادعة والمداهنة ، ويُتلافى ايضاً ما قد يمكن ان يُحدثه من الاضرار المردة المتطاولون على الحق . افا انت لا تتثبط عن المجيء الينا وحسب . وان كنتَ لا تستطيع المجيء من اجل وقر شيخوختكم ، او من جراء بوائق الزمان ، او لدواعٍ ما موجبة ، فارسل ثلثة او اربعة اساقفة ذوي خبرة يحسنون التكلم ويتفادون من المداهنة والرشوة . واذا ما اتوا بكتاباتكم وراعوا امركم نحقق نحن وهم رغبتكم ، ونصبح عاملين على تدبير شؤون الدير اكثر من جميعهم . ومن يثبت عليه انه تجاسر واوجب الجزية على الدير يُنبذ من السويين والارضيين ويفي هو ذاته الذهب وتتنعل بقيّة الاحزاب من اللائمة . وعليه فلا يقصدنّ بك امر ، يا ابانا ، عن المجيء الينا لما لنا فيه من جمّ الفوائد . اولا : تتحقق رغائبكم ، واني متأهب بنفسي لقدومكم . ثانياً : تتثبتون وتتكرّمون من جميع المذاهب والالسنة . ثالثاً : يتخلّص الكل من اللائمة ، ويُنادى باسمكم الكريم كالعادة ، وينجز حسب وعدكم الصادق المجمع العام ، وجميع ما كتب مع

الاساقفة القادمين وقداستكم تسطرون درج المجمع العام ، ويتبدّل بشهادتهم الحرم السابق بتأدية الصلوات والبركات ، ويُطلَق إسار اخوتنا المظلومين وينجون من العذل . ولدن بلوغ هذا الدرج نلازمنّ محلّنا الحالين فيه او نعتزل الى الراهب صليبا مختلين بنفسنا دون ان نتبس بكلمة من شأنها ان تثير عثير الشغب والبلبلة ضدّك ، او ضد الاساقفة ، او ضدّ بيعة المسيح . لكننا نتوجّب في عداد المعذّبين والمضطهدين الذين مثر بهم الزمان ، ونصلي على الانباء في اجلكم ، وبناء على امر سيادتكم في الرسالة الثانية نقطن حيث يطيب لنا . اجل هكذا نصنع وان الحاجة ماسّة الى قدومنا لاننا نشفق على نفسنا واذ قد بتّ الامر اننا لا مطمع لنا البتة في الانثمان على ازمّة الرعاية ، ان حيينا وان متنا ، فخير لنا ان نسكن ونعمر مع امثالنا في الرتبة ونبتعد عن الدنو منكم بالمكان لا بالجنان ، حتى يضمحلّ جسد الخناس وتتصرّم احبولات بهتانه . واما انتم فالله يحفظكم ويرفع شأنكم بالرعاية ، وينوّه بكم كالرسل القديسين ، ويمتعكم بحياة طويلة . ونحن انّى نكون احسبني عبدًا وتلميذًا لكم ورقيقًا اكثر من جميع الذين يتنعمون بخيراتك . آمين .

ينبغي ان تريحوا عن افكاركم الشبهات ، وتتأكدوا اخوتكم واثقين بان ما يقرع الآن مسمعيكم الطاهرين من عبارات التظلم المُبلِّلة والاحتجاجات البارزة مع الروح من اعماق قلبي المعذّب ليست من آداب المراسلة في شيء ، وبعيدة عن اسلوب الكتابة المتوجب على العبيد نحو مواليهم ، بل هي اشبه بالميثاق والوصية اللذين يستعجل بابرازهما المُدنف ، وهو يجود بانفاسه الاخيرة ، ودموعه تسح حينئذٍ ممتزجة بدم اوردة القلب ، واثقًا بان تكون لي مع آلام السيد المسيح مدعاة للتزكية والتطهير . لان ليس لي قط ولقريبتي العلانية منفعة او رفهية او راحة ما دمت بوثاق الجسد او انفككت منه الا حياة البيعة وقوامها ونظامها . واعلموا ، يا اخوتي ، باني احالن قداستكم بمكنونات صدري كما هي بادية وصحيحة امام فاحص الجميع الذي لا يغرب عن علمه شيء ان نفسي الذليلة تتوق وتحنّ جدًّا جدًّا الى الفوز بالاختتام الذي اعدته

وهيأته لي رحمة من استشهد في ولاية بنطيوس بيلاطس ، وهو اختتام سعي اصفياء الله الرب الصالح ، أريد به حيازة اكليل الاستشهاد المجيد الشهي الذي أعدّ لي باذن رأفة من يريد حياة كل انسان . فالذي هايج اليهود أولاً على إراقة دم رب العالم الطاهر وخالق المعمورة الشديد البأس هو هو اثار عليّ جنوده الاشرار وخدمه الكفرة غير المؤمنين . واعلموا بانه لم يصرفنا ويبعدنا عن هذا الاكليل شيء البتة لا رهبة الموت ، وهو آخرة كلّ بشر وليس بوسع احد التملّص منه اذ لا بد لكل مولود امرأة من ان يذوقه مرة واحدة فضلاً عن انني علقت من تلك الساعة فصاعداً اذوق الموت الزؤام الف الف مرة في كل سراح ورواح وعيناي مفتوحتان . ولم يتأتّ لحب العالم وزهوه ومقتنياته ان تصدفني عن هذا الاكليل لان مثل هذه النهاية شهية لديّ لانجو مما يخدش سعي وسعكم الطاهر فلا أجبّر فيما بعد على الاصاخة الى هذر الشعوب في هذا العالم الكاذب الاسم والشكل ، ولاسيما ثلب الاشرار منهم اعداء استقامة المعتقد الذئاب المتطفون بلباس الحملان القائلين بيزء وشماتة : « زه ا زه ! قد رأت به اعيننا » ويتشبّثون باعمال الصلاح مداجاةً ويعزون الى بلواي انبازاً نائية عني نظراً الى استعدادي كنأي المشرق عن المغرب وقصية عني ومضادة لي كمضادة النور الظلام والموت الحياة . وان كانت المخالفات والاوهام تخلق لي بيّنات وقتية فانّ ابراهيم ابا الشعوب كان يأتي بالبينات الوقتية لدن الشعوب الكفرة ويتقلب حسب الزمان وكان هؤلاء ينبزونه وامرأته بانباز كاذبة حينئذٍ . وعلى هذا النمط جرى يعقوب اسرائيل في اعماله وتصرفاته عند خاله لابان الوثني حتى كان يُظنّ انه ايضاً وثني على شاكلة خاله ، مع انه كان مؤمناً بالله . واقتفى خطواتهما ايضاً بهذه الاعمال موسى زعيم الانبياء ، اذ زجّى اربعين سنة في بيت فرعون عابد الاصنام ، وكان يُعَدّ ابناً ومشايعاً ، وزجّى اربعين سنة اخرى عند رعوئيل حبر الابالسة وكان يُظن صهراً وموافقاً ، مع انه نجيّ الله العلي ولم يحسب لدنه تعالى الا خادم الاسرار والالهيات ورأس الانبياء طرّاً . وقد رُميَ بجهل غير يسير هذا الامين المُشبَع عقلاً لا يعازبه رثاء او شحناء ولم يرَ عليه ظلّ المخالفة . لنتقدّم الآن من اخبار مار برلس اللاهوتي .

فان هذا الاناء المختار والرسول الساعي المهام الذي لم يحتر له نصيباً سوى المسيح وباشارته سار وتدبّر ، كان كلّما شام برق فائدة لربح النفوس لله ، او بَصَّ له وَميضُ منفعةٍ للكنيسة تصرّف بدهاء وفطنة مع الظروف فتسمه تارة يكتني ذاته يهودياً ، وتراه طوراً يتقيأ بظل الرومانيّة ، وتلفيه حيناً يتزيّا بالوثنية ، وتشاهده آناتٍ كثيرة يفتخر بهذه الحكمة ويجهر على رؤوس الاشهاد منادياً: « اني اضحيت كلًا للكلّ لاربح الجميع حتى اني صرت بلا اله لاربح الذين بلا اله ، مع اني لست بلا اله . » وعلى هذا المنوال نسج مار اثناسيوس الرسولي بابا الاسكندرية[1] متصرّفاً مع الزمان اذ انه لما حلّ بساحته الاضطهاد من الاريوسيين ولجأ الى المهرب من وجه يوليانس الملك الجاحد الاثيم متنقلًا من مكان الى آخر ومختفياً تارة في المقابر وطوراً عند امرأة بتول كان يُدلي بحجته قائلًا: «لا يشين بالخوتي اللياذ بالهزيمة من وجه المضطهدين فقد لاذ بها داود من وجه شاول، ويعقوب من وجه اخيه عيسو ، وقد دُلّي مار بولس الرسول بزنبيل في دمشق من السور . اوَلم يقل ربّنا يفمه القدوس اذا ما طردوكم من مدينة فاهربوا الى اخرى ؟ » . وقد حدث مرة لهذا الاب القدّيس وهو هارب في احدى السفن ان ادركه المضطهدون وطفقوا يسألون عنه من معه ، فاجابهم هؤلاء كاذبين : انه ليس ببعيد عنكم فالحقوه . ولما ذهبوا ليتقصوا اثره عاد اثناسيوس ادراجه الى الاسكندرية واختفى عند راهبة طيلة ايام الملك العاتي يوليانس الجاحد .

(لها صلة)

---

١) قال المقريزي في « كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » (٢ : ٤٨٤ ، طبعة بولاق في ذكر تأريخ الاقباط) : « وكان بطرك الاسكندرية يقال له البابا ومعناها ابو الآباء ثم انتقل هذا الاسم عن كرسي الاسكندرية الى كرسي رومية من اجل انه كرسي بطرس رأس الحواريين فصار بطرك رومية يقال له البابا واستمرّ ذلك الى زمننا الذي نحن فيه . »